الإمام محمد الخضر حسين

وجهوده في تجلية إعجاز القرآن الكريم

إعداد الأستاذ الدكتور

رضا عبد المجيد المتولي إبراهيم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في كلية أصول الدين

والدعوة بالمنصورة، جامعة الأزهر

الإمام محمد الخضر حسين وجهوده في تجلية إعجاز القرآن الكريم

رضا عبد المجيد المتولي إبراهيم

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، جامعة الأزهر، المنصورة، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: redaibrahim.7824@azhar.ed

الملخص:

هذا البحث يهدف إلى: بيان فكرة إعجاز القرآن الكريم في فكر الإمام محمد الخضر حسن. واتبعت هذا البحث منهجًا يجمع بين المنهج الاستقرائي، والوصفي، والتحليلي. ومن نتائج البحث: أن هناك إعجازًا يتحقق في كل سورةٍ من سور القرآن الكريم، وفي كل آيةٍ من آياته، ويتمثل في: حسْن النظْم، وبراعة الأسلوب، وحكمة المعنى. وفي القرآن وجوهٌ أخرى من الإعجاز تنفرد بها بعض السور أو الآيات؛ كالإخبار عن غيوبٍ ماضية أو غيوبٍ مستقبلية، رفض الإمام محمد الخضر حسين للإعجاز العددي في القرآن الكريم القائم على حساب الجمَّل، أُسُّ الإعجاز في القرآن هو الإعجاز البلاغي وبقية وجوه الإعجاز تبعٌ له، أن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم لا يدركه إلا مَنْ عرف بلاغة اللغة العربية بخلاف بقية وجوه الإعجاز الأخرى، أن السبيل إلى معرفة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم هو قراءة المعقول والمنقول قبل الإقبال على قراءة التفسير، أن ذكر القرآن لأقوال الناس إنما هي ذكر لمعنى ما قالوه، لا للفظه ؛ فلا يكون ما صدر عنهم معجزًا كإعجاز القرآن الكريم، إشارة الإمام محمد الخضر إلى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم كوجهٍ معتبر من وجوه إعجاز القرآن و يأتي ذكر هذه الحقائق العلمية في غضون الحديث عن الهداية ووسائلها وسبلها، ربط الشيخ الإمام بين إعجاز القرآن الكريم وأمية العرب عند بيان بعض وجوه

إعجاز القرآن، كالإعجاز العلمي، الفرق بين بلاغة القرآن الكريم، وحديث النبي ﷺ جليٌّ واضح، ومَن عقد بينهما مقايسةً، رأى حق اليقين أن أولئك الذين يقولون إن القرآن من تأليف محمد ﷺ لم يذوقوا للبلاغة طعمًا أو لم يهتدوا للإنصاف سبيلًا. هذا، وأوصي بدراسة وافية مستوعبة لقضايا علوم القرآن لدى شيخ الأزهر الشريف، بحيث يُدرس كل فرعٍ من فروع القرآن على حدة في فكر هؤلاء الأعلام.

الكلمات المفتاحية: محمد الخضر حسين، إعجاز، القرآن.

Imam Muhammad Al- Khidr Hussein and his Efforts to Manifest the Inimitability of The Holy Qur'an

By: Reda Abdul Majeed Al-Metwally Ibrahim
Department of Interpretation and Quranic Sciences
Faculty of Osoul El-Deen and Dawah in Mansoura
Azhar University, Egypt

Abstract

This research paper demonstrates the idea of the inimitability of the Holy Quran in the thought of Imam Muhammad Al-Khidr Hussein. The paper has applied a combination of the inductive, descriptive, and analytical approaches. According to the findings of this paper, the Holy Qur'an has a kind of inimitability manifested in every surah and verse as embodied in its good organization, brilliant style, and wise meaning. There are other forms of inimitability in the Holy Quran and they are tacitly present in some specific Surahs and verses. Those forms include reporting past or future unseen events. Imam Muhammad Al-Khidr Hussein has not approved the numerical inimitability of the Holy Qur'an as it relies on abjad calculations whereas the inimitability of the Holy Qur'an is rhetorical and other miraculous aspects follow it. The rhetorical inimitability of the Holy Qur'an is comprehensible only by those who understand the rhetoric of Arabic language rather than other forms of inimitability. In addition, the way to know the rhetorical inimitability of the Holy Qur'an is to read the rational and transmitted clues before reading the interpretation. Also, mentioning people's statements in the Holy Qur'an is just a reference to the meaning of what they said, not its wording. Hence, what they said is not miraculous. Moreover, Imam Muhammad Al- Khidr's reference to the scientific miracles of the Holy Qur'an is a significant aspect of the inimitability, and these scientific facts are mentioned in the context of discussing guidance, its means and methods. Imam Al- Khidr has linked the inimitability of the Holy Quran to the illiteracy of the Arabs while

explaining some aspects of the Holy Qur’an such as the scientific miracles. The difference in between the rhetoric of the Holy Quran and the Hadith of the Prophet (Peace be upon him) is obvious, and whoever draws a comparison between them will certainly see that those who thought of Muhammad (peace be upon him) to compose the Holy Qur’an have not felt the flavor of rhetoric or have not found a way to be fair. Finally, the research paper recommends a comprehensive study of the issues of Quranic sciences for the Grand Sheikh of Al-Azhar Al-Sharif, so that each branch can be studied separately in the thought of these scholars.

Keywords: Muhammad Al-Khidr Hussein, inimitability, the Holy Qur'an.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد فهذا بحث بعنوان (الإمام محمد الخضر حسين وجهوده في تجلية إعجاز القرآن الكريم) مشاركة في المؤتمر العلمي الدولي الخامس لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، وعنوانه: (دور مشايخ الأزهر الشريف في خدمة العلوم الشرعية والعربية والعقيدة الإسلامية)، وتأتي أهمية هذا البحث من نواحٍ ثلاث:

الأولى: شرف موضوعه؛ إذ يعالج موضوعًا من أهم موضوعات علوم القرآن الكريم، وهو "إعجاز القرآن الكريم".

ثانيًا: أنه يجمع شتات موضوع تفرَّق في نتاجٍ علميٍ غزير على مدار حياة عالم امتدت خمسة وثمانين عامًا مباركًا.

ثالثًا: أن هذا العالم أحد شيوخ الأزهر الشريف المعمور.

هذا، وقد اتبعت في نسج هذا البحث منهجًا يجمع بين عدة مناهج علمية معتبرة، المنهج الاستقرائي، والوصفي، والتحليلي. فقمت بجمع ما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم من تراث الشيخ، ثم صنفته، وعنونت له من عندي بعناوين مناسبة، فتأملت فريدة العقد، ثم ضممْت كل زوج بهيج من حبات الإعجاز، حتى اكتمل العقد، وصار تبصرة وذكرى لكل عبد منيب إلى إعجاز القرآن الكريم.

هذا، وجاء البحث المذكور في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة.

المبحث الأول: التعريف بالإمام محمد الخضر حسين.

المبحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن في فكر الإمام محمد الخضر حسين.

يشتمل على تمهيدٍ وستة مطالب:

التمهيد: يتناول تقرير إعجاز القرآن ودليله، ومناسبة معجزة القرآن الكريم لحال قوم النبي ﷺ.

المطلب الأول: أنباؤه عن الأمم السابقة بما لا يخالفها في التاريخ.

المطلب الثاني: تحقق أخبار القرآن الكريم المستقبلية على نحو ما أخبر به.

المطلب الثالث: الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

وفيه محاور:

المحور الأول: بيان معايير بلاغة القول.

المحور الثاني: مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

المحور الثالث: نماذج من بلاغة القرآن الكريم.

المحور الرابع: مسائل تتعلق بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

المطلب الرابع: اشتمال القرآن الكريم على الحِكَم الرائعة والمعاني العظيمة التي لا اختلاف بينها ولا تعارض.

المطلب الخامس: ورود معاني القرآن الكريم كلها على الوجوه المعقولة، وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة.

المطلب السادس: قوة أدلة القرآن الكريم وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح.

الخاتمة: تتناول أهم نتائج البحث وتوصياته والمراجع وفهرس الموضوعات.

المبحث الأول

التعريف بالإمام محمد الخضر حسين

هو العالم الحجة الشيخ محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الفقيه المالكي الأصولي المفسّر اللغوي الأديب الكاتب الشاعر المصلح. وهو من أسرة علم وصلاح وتقوى يتصل نسبها بالرسول الأعظم ﷺ. وهو جزائري الأصل، ولكنه ولد في تونس؛ لأن والده انتقل إليها مهاجراً بسبب دخول فرنسا بعد حرب دامت سنوات مع أهل الجزائر وجدهُ لِأُمِّه الشيخ الكبير محمد بن عزوز.

ولد الشيخ محمد الخضر في ٢٦ رجب سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٣ م في بلدة (نفطة) في إقليم (الجريد) من الجنوب التونسي. وفي هذه البلدة حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وقرأ بعض الكتب الابتدائية، وأحاط بالمتون في صغره على عادة نوابغ أهل المغرب. وبهذا قضى محمد الخضر طفولته بمسقط رأسه بجنوب تونس. ثم رحل مع أبيه وأسرته إلى (تونس) العاصمة في أواخر سنة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٦ م، حيث واصل تعلمه الابتدائي، وكان قد شرع فيه عندما كان بنفطة، ثم التحق بجامع الزيتونة سنة ١٣٠٧ هـ للمزيد من التعمق في العلم والتبحر فيه، وقرأ على أشهر أساتذته، وتخرج عليهم في العلوم الدينية واللغوية، ونبغ فيها وفي غيرها، فطُلب لتولي بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته، لكنه أبى وواظب على حضور دروس العلماء الأكابر مثل عمر بن الشيخ، والشيخ محمد النجار، وكانا يدرِّسان التفسير، والشيخ سالم بو حاجب، وكان يدرس صحيح البخاري.

ونال الشيخ محمد الخضر من جامع الزيتونة الذي يشبه الأزهر شهادة التطويع التي تشبه الشهادة العالمية الأزهرية عام ١٣١٦ هـ، وهو في نحو الرابعة والرابعة والعشرين من سني حياته.

وبعد تخرج الشيخ محمد الخضر من جامع الزيتونة رحل إلى الشرق سنة ١٣١٧هـ، ولكنه لم يبلغ (طرابلس) حتى اضُطَّر إلى الرجوع بعد أن أقام بها أيامًا، وعاد إلى تونس، يفيد ويستفيد، فأنشأ فيها مجلة علمية سمَّاها (السعادة العظمى) في شهر المحرم سنة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م، وكانت أول مجلة أدبية علمية أنشئت في المغرب العربي، فأقبل عليها العلماء، ونشَّطه أهل الفضل، وفي مقدمتهم الوزير الشيخ محمد العزيز بو عتُّور، والشيخ سالم بو حاجب، ولقي الشيخ محمد الخضر في سبيل بث رأيه الإصلاحي ما يلقاه كل من سلك هذا السبيل، ولذلك أغلقتها السلطات الفرنسية.

وفي سنة ١٣٢٣هـ، ولي القضاء بمدينة (بنزرت)، والتدريس والخطابة بجامعها الكبير، ولم يكتفِ بعمله الرسمي بل عمد إلى إلقاء المحاضرات العامة.

وضاق الشيخ محمد الخضر ذرعًا بقيود الوظيفة الرسمية وأصفادها ، فلم يطل عهده في القضاء؛ إذ حال بينه وبين الدراسة العلمية الموسَّعة ، فاستقال ورجع إلى (تونس) متبرعًا متطوعًا بإلقاء الدروس في جامع الزيتونة وغيرها، وقدَّر ولاة الأمر خدمته وشريف مقصده فعيَّنوه مدرسًا رسميًا في معهد (الزيتونة)، وعضواً في ترتيب وتنظيم خزائن الكتب في مكتبته، ومدرسًا في المدرسة (الصادقية) وعهدت إليه الجمعية الخلدونية في إلقاء محاضرات على طلبتها في آداب اللغة العربية، وبقي في التدريس خمس سنوات، واشتغل في أثناء ذلك بقضية بلاده وبالقضايا الإسلامية العربية، مما عرَّضه للأخطار والأهوال، إذ غضب عليه المحتلون وضيقوا عليه الخناق، فحكم عليه الفرنسيون بالإعدام - قبيل الحرب العالمية الأولى - لاشتغاله بالسياسة وإثارته العامة والخاصة، ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذه؛ لأنه هاجر بنفسه في سبيل مبادئه وعقائده، فغادر (تونس) نهائيًا إلى الشرق عام (١٩١٢م)، فرحل إلى الشام، والحجاز، وتركيا، وألمانيا، واستمرت فترة رحلاته وتنقلاته من عام ١٩١٢ م إلى عام ١٩١٩م.

وفى عام ١٩١٩م رحل الشيخ محمد الخضر إلى مصر، فعُيِّن بدار الكتب الملكية مصححًا بالقسم الأدبي، وكان في كل ما وليَه من أعمال مثال الكفاءة النادرة والنبوغ الفَذِّ والمقدرة

الفائقة. ولم تمنعه مكانته العلمية من أن يتقدم إلى الأزهر الشريف لنيل شهادة العالمية الأزهرية، فنالها عام ١٩٢٦ م، وبذلك تحققت آمال والدته فيه؛ لأنها كانت تحمله وهو صغير وتغنى له بغناء شعبي تقول:

يـــا ربـــى الأكبـــرْ تخلّـي لـي محمـد الأخضـر

يقـرأ في الجـامع الأزهـر ويشـــتهر في المالكيـــة

وانتشر اسمُ الشيخ وذاع صيته حتى تسامع به أولياء الأمور في الأزهر الشريف، وملأ حديثه مجالس العلماء والطلبة، فرأت مشيخة الأزهر أن تفيد منه طلاب التخصص فندبتْه للتدريس بقسم التخصص – بعد أن نال شهادة العالمية الأزهرية – تقديراً لفضله وعرفانًا لقدره.

ثم اختير الشيخ محمد الخضر رحمه الله رئيسًا لتحرير مجلة نور الإسلام – التي هي الأزهر الآن – وكانت لسان حال الأزهر يومئذٍ فاضطلع بهذا العبء بضع سنين بمقدرة وجدارة، ثم عُيِّنَ مدرسًا بكلية أصول الدين سنة ١٩٣١ م، فتخرج به كثير من العلماء الذين لا يُحصوْن كثرة، واشترك في إنشاء (جمعية الشبان المسلمين)، وأسهم في وجوه كثيرة من النشاط العلمي والأدبي والديني. وصار رئيسًا لجمعية الهداية الإسلامية ومدير مجلتها منذ إنشائها. وقد عَرَفت وزارة المعارف مكانته العلمية فعيَّنته عضواً بمجمع فؤاد الأول للغة العربية. كما تولى رئاسة تحرير (مجلة لواء الإسلام) التي أنشأها معالي الأستاذ أحمد حمزة. وعُيّن أيضًا عضواً في جماعة كبار العلماء. واختير الشيخ محمد الخضر يرحمه الله

شيخـًا للأزهر في عهد الثورة عام ١٩٥٢ م، وعمره يناهز الثمانين، وظل فترةً في هذا المنصب الخطير، ولكن سن الشيخ أبى عليه البقاء بمشيخة الجامع الأزهر طويلًا، فطلب من مجلس الثورة إعفاءه وقُبل منه ذلك عام ١٩٥٤ م، واعتكف الشيخ في بيته يبحث ويكتب حتى وافاه الأجل المحتوم في الثاني من فبراير سنة ١٩٥٨م. ودفن بناء على وصية منه مع صديقه المرحوم العلامة أحمد تيمور باشا في المقبرة التيمورية في القاهرة.

ومن أشهر مؤلفاته: رسائل الإصلاح، محمد رسول الله وخاتم النبيين، بلاغة القرآن الكريم، الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، الدعوة إلى الإصلاح، القياس في اللغة العربية، الخيال في الشعر العربي، دراسات في الشريعة الإسلامية، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ علي عبد الرازق، نقض كتاب في الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين، وغير ذلك(١).

ومن الجميل أن قام ابن أخي الشيخ محمد الخضر حسين، وهو الأستاذ علي الرضا الحسيني بجمع مؤلفات الشيخ وجميع تراثه العلمي في "موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين"، وتولت طباعتها دار النوادر الكويتية.

(١) راجع ترجمته في: "كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين"، إعداد: علي الرضا الحسيني، ط الدار الحسينية للكتاب، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث للعلامة أحمد تيمور. ط. دار الآفاق العربية، الفتح المبين في طبقات الأصوليين للشيخ عبد الله مصطفى المراغي، الناشر: محمد أمين دمج – بيروت، مشيخة الأزهر للأستاذ: علي عبد العظيم، ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

المبحث الثاني

وجوه إعجاز القرآن في فكر الإمام محمد الخضر حسين

تمهيد:

يمكننا أن نقول: ذكر الشيخ أمرين كتمهيد بين يديْ إبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهما:

الأول: تقرير إعجاز القرآن الكريم ودليله.

ذكر الإمام محمد الخضر حسين – يرحمه الله – أنَّ القرآن الكريم معجزة باهرة، وبيَّنَ معنى معجزة القرآن الكريم، فقال: "وأَمَّا معجزة القرآن فهي ارتفاعه في حكمة المعاني، وسمو المقاصد، وفصاحة الكَلِم، وجودة النظْم، وروعة الأسلوب، إلى مرتبة يقف دونها فطاحل البلغاء بمراحل"(١).

ثم بيَّن – رحمه الله – أَدلة إعجازه؛ فقال: "يشهد لك ببلوغه مرتبة الإعجاز: ذوقك السليم، وبصيرتك النقية، ويؤيد هذه الشهادة: أن الله تعالى قد تحدى به العرب على لسان نبيِّه ﷺ، فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾(٣). تحداهم

(١) انظر: محمد رسول الله وخاتم النبيين، بقلم: صاحب الفضيلة الأستاذ السيد/ محمد الخضر حسين، صـ ١٠، طبعة المعاهد الدينية، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (٣/ ١٠٠٨)، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي على الرضا الحسيني، ط دار النوادر الكويتية.

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨.

(٣) سورة البقرة آية ٢٣.

بالقرآن، ونادى عليهم بالعجز عن أن يأتوا بسورة من مثله، ولم يستطعْ أحدٌ منهم – وهم المجَلُّون في حلبة البلاغة – أن يتصدى لمعارضته، ولو بمقدار سورة، بل جنحوا إلى مقابلته بالسخف من القول، ووصْفِه بأنه أساطير الأولين. ولما عرفوا أنه يمتلك ببلاغته النفوس، ويستولي بحكمته على القلوب لم يكن منهم إلا أَنْ حاولوا صَرْفَ النَّاس عن سماعه، وكانوا يقولون لأوليائهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].[2]

الثاني: مناسبة معجزة القرآن الكريم لحال قوم النبي ﷺ.

قال الإمام محمد الخضر حسين: "ومن المعروف أن معجزات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – تجيء مناسِبة لحال أقوامهم؛ ففي زمن موسى – عليه السلام – كانت الغلبة للسحْر، فكانت معجزته قلبَ العصا ثعبانًا، وذلك ما يَعجز عنه كل سحَّار عليم. وفي زمن عيسى – عليه السلام – كان التنافس في الطب، فجاء بما لا يصل إليه الأطباء، وهو إحياء الموتى.

وفي زمن خاتم النبيين – ﷺ – كان التفاخر بالبلاغة وحسن البيان، فجاء بما أعجز كل خطيب مِصقَع[3]، وشاعر مُفلِق[4]، وهو القرآن الكريم"[5].

---

(١) سورة فصلت: آية ٢٦.

(٢) محمد رسول الله وخاتم النبيين، للإمام محمد الخضر حسين، ص ١١، ١٢، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (٣/ ١٠٠٩).

(٣) خطيب مِصقَع بكسر الميم: بليغ. المصباح المنير. مادة صقع، صـ ٣٤٥. ط. دار الكتب العلمية.

(٤) شاعر مُفلِق بضم الميم وسكون الفاء وكسر اللام. مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، مادة (فلق)، صـ ٥١١، ط. دار الفكر. ومعنى شاعر مفلق: يأتي بما يعجب في شعره. المعجم الوسيط، (مادة فلق)، (٢/ ٢٧٢)، ط. مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية.

(٥) محمد رسول الله وخاتم النبيين، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ١٠، وموسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (٣/ ١٠٠٨).

هذا، وتفاوتت آراء المفسرين في البحث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم على قدر تفاوتهم في العلم والفهم.

قال الإمام محمد الخضر: "وللبحث في إعجاز القرآن نواحٍ كثيرة اتجه إليها المفسرون وعلماء البيان بتفصيل، فكشفوا الغطاء عن كثير من أسرارها، ووضعوا أيديهم على جانب عظيم من حقائقها"(١).

والمطلع على ما خلَّفه الشيخ الإمام محمد الخضر حسين من تراثٍ علميٍ حافل يجد أن الشيخ رحمه الله كان يرى أن أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم ما يلي:

المطلب الأول: أنباؤه عن الأمم السابقة بما لا يخالفها في التاريخ.

قال الإمام محمد الخضر حسين عن هذا الوجه: "جاءت آيات من القرآن الكريم بأنباء عن الأمم السابقة: كقصة آدم، وقوم نوح وقوم هود، وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى - عليهم السلام - وكثير منها لا يعرفه العرب، فذكرها القرآن الكريم ذكرَ من حضَرَها وشاهدها، ولم نجد في التاريخ ما يخالفها. وقول بعضهم إن قصة آدم تمثيل(٢) وغير واقعية كلام لا يستند إلى شيءٍ معقول، فضلاً عن تاريخ صحيح.

وقوله تعالى عن قصة مريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾(٣) حيث جعلها أخت هارون، قد أجاب عنه النبي - ﷺ - بأنهم كانوا يسمَّوْن

(١) بلاغة القرآن الكريم للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٧، أشرف على طبعه ونشره علي الرضا التونسي، ط. ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.

(٢) لعلَّ الإمام محمد الخضر حسين يعني الإمام محمد عبده، فقد فسَّر قصة آدم في سورة البقرة على طريق التمثيل في القصة. يراجع الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٤/ ١٤٤) تحقيق وتقديم: د. محمد عمارة، ط. دار الشروق.

(٣) سورة مريم آية ٢٨.

بأسماء أنبيائهم(١)، وليس المراد هارون أخا موسى عليه السلام(٢).

المطلب الثاني: تحقق أخبار القرآن الكريم المستقبلية على نحو ما أخبر به.

قال الإمام محمد الخضر حسين عن هذا الوجه: "ومن أنباء القرآن ما يكون مستقبلاً، ووقع كما أخبر به، كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾(٣)، وبيان هذا: أن حربًا كانت وقعت بين الفرس والروم، وكانت عاقبة الفوز للفرس، وكان قريش يتشيَّعون للفرس؛ لأنهم لا يدينون بكتاب، والمسلمون يودون انتصار الروم؛ لأنهم أهل كتاب، فنزلت الآيات مخبرة أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين، والبِضْع في لغة العرب يستعمل في التسع فما دون. وقد وقع ما أخبر به القرآن الكريم، فعاد الروم والفرس إلى الحرب لسبع سنين من الحرب الأولى، وكان الظفر للروم، ويروى أن انتصار الروم على الفرس في هذه الحرب كانت سببًا لإسلام كثير من الناس؛ لوقوعه كما أخبر القرآن الكريم.

فقد غلبت الروم الفرس في بضع سنين كما أخبر به القرآن الكريم، في قوله ﷻ: ﴿سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾.

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقالوا: إنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ ﴿ يَاأُخْتَ هَارُونَ ﴾ [مريم: ٢٨]، وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بكَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا قَدِمْتُ علَى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَأَلْتُهُ عن ذلكَ، فَقالَ: إنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ. صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، شرح النووي على مسلم (٧/ ٣٦٨) ح رقم (٢١٣٥)، ط. دار الحديث بالقاهرة.

(٢) بلاغة القرآن للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٥.

(٣) سورة الروم آية ١ - ٤.

و من الآيات المنبئة عن أمر مستقبل: قوله تعالى خطابًا لنبيه الكريم: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، فقد كان أعداؤه ﷺ من المشركين وغيرهم حريصين على قتله، وكان - عليه الصلاة والسلام - يخرج لكل مَنْ يريد لقاءه، ويجلس مع كُلَّ مَنْ يبغي الجلوس معه ، ولا تنسَ أن حوله منافقين يعملون له أشد البغضاء، ويتصلون به اتصال الأصحاب والأقرباء، ومع كثرة أعدائه، وتهالكهم على الكيد له، ومع ظهوره للناس في أي وقت شاؤوا، ومشيه في الطريق والأسواق وحده ، أو مَعَ مَن لا يستطيعُ أَنْ يدفَعَ عَن نفسه، لم تمتدّ إليه يد بسوء، ولم يمُت إلا على فراشه، وذلك مصداق قوله - تعالى -: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾(١).

ومن هذا القبيل أن القرآن الكريم نزل في آخر غزوة من غزوات رسول الله ﷺ وقال للمخلَّفين: "﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾(٢)، ولم يدعهم النبي ﷺ؛ لأنها نزلت في آخر غزوة من غزواته، ودعاهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى قتال أهل الردة، وكان أهل الردة ذوي بأسٍ شديد.

ولا يدخل في الإخبار بالمغيبات ما توهَّمَه بعضُهم من أنّ مصر تُفتح للعثمانيين في عهد السلطان سليم سنة كذا؛ أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾(٣)، إذ إن حروف (ولقد) توافق حروف (سليم) في حساب الجُمَّل(٤)، والذكر يوافق حسابها تلك السنة، فيكون المعنى: سليم... كتبنا في

(١) سورة المائدة آية ٦٧.

(٢) سورة الفتح آية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

(٤) حساب الجُمَّل: ضربٌ من الحساب يُجعل فيه لكل حرف من الحروف الأبجدية عددٌ من الواحد إلى الألف على ترتيب خاص. انظر: المعجم الوسيط، مادة (جمل)، (١/ ١٤١).

الزبور من بعد تلك السنة أنَّ الأرض - أي: مصر - يرثها عبادي الصالحون، وهم العثمانيون.

فلا يؤخذ من القرآن إلا ما نزل للهداية، وما حصل من فتح سليم لمصر في السنة المذكورة كان مجرد مصادفة(١).

وهذا يبين رفض العلامة الشيخ محمد الخضر حسين لما يسمى بالإعجاز العددي للقرآن الكريم القائم على حساب الجُمَّل.

المطلب الثالث: الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

ينتظم جهد الإمام محمد الخضر الحسين في تجلية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في المحاور التالية:

المحور الأول: بيان معايير بلاغة القول:

قبل أن يبين الإمام محمد الخضر حسين وجوه إعجاز القرآن الكريم، ذكر معايير بلاغة القول؛ فقال: "بلاغة القول: أن تكون ألفاظه فصيحة، ونظمه محكمًا، ودلالته على المعنى منتظمة وافية. أما فصاحة ألفاظه فبأن يسهل جريانها على اللسان، ويخف وقعها على السَّمع، ويألفها الذوق غير نابٍ عنها، وهي مع ذلك جارية على ما ينطق به العرب أو يجري على قياس لغتهم.

وأَمَّا إِحكامُ نظْمه فبأن تقع كل كلمة منه موقعَها اللائق بها، بحيث تكون كلماته متناسبةً يأخذ بعضها برقاب بعض، فلا يمكنك أن تضع يدك على كلمة وتقول: ليت هذه الكلمة تقدمت على تلك الكلمة أو تأخرت عنها، وأما انتظام دلالته فبأن يطرق اللفظ سمعك،

(١) يراجع: بلاغة القرآن للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٥ وما بعدها، محمد رسول الله وخاتم النبيين، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ١٣ وما بعدها، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (٢/ ٥٠٦)، (٣/ ١٠١٠) وما بعدها، (٣/ ١٠٥١) ما بعدها.

فيخطر معناه في قلبك، وحصول المعنى في القلب بسرعة أو بعد مهلةٍ يرجع إلى حال السامع من الذكاء أو بُطء الفهم، وحال المعنى من جهة ظهوره وقرب مأخَذه، أو دقَّته وغرابته.

ويتحقق انتظام دلالة الكلام بإخراج المعاني في طرق تُريكَها في أقوم صورة وأعلقها بالنفس، كالتشابيه وضرب الأمثال، والاستعارات، والكنايات المصحوبة بقرائن تجعل قصد المتكلم قريبًا من فهم السامعين.

وأما كون الدلالة على المعنى وافية، فبأن يؤدى اللفظ صُوَرَ المعاني التي يقصد المتكلم البليغ إفادتها للخاطبين على أكمل وجه؛ بحيث تكون العبارة بمفرداتها وأسلوبها كالمرآة الصافية، تعرض عليك ما أُودعت من المعاني لا يفوت ذهنك منها شيء.. ونريد من المعاني التي يؤديها الكلام غير منقوصة، ما يشمل المعاني التي يراعيها البليغ زائدة على المعنى الأصلي الذي يقصد كل متكلم إلى إفادته، وهي المعاني التي يُبحث عنها في علم البيان، وتسمى "مستتبعات التراكيب"[1].

(١) راجع: بلاغة القرآن للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٧، ٨، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤).

المحور الثاني: مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

قرر الإمام محمد الخضر حسين إعجاز القرآن البلاغي؛ فقال: "والقرآن وصل بالبلاغة - وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال - إلى أعلى ما وصلتْ إليه بلغاء العرب، فتحداهم بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1]، وقوله: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2]".[3]

وأشار الإمام الخضر حسين إلى مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن بإيجاز شديد، فقال: "ومن وجوه إعجاز القرآن بلوغه في فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وجودة النظم منزلة تقف دونها فطاحل البلغاء. ذلك أن البلاغة لعهد البعثة المحمدية قد وصلت إلى درجتها العليا، كان العرب يتنافسون في فنونها، ويطلقون الأعنَّة في مضمارها، حتى أتى محمد صلوات الله عليه - بما عجز أن يأتي بمثله بلغاء العرب قاطبة[4].

وإذا كان الإمام محمد الخضر حسين ذكر مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن بإيجاز شديد في النص السابق، فقد فَصَّل القول في تلك المظاهر، وهي على النحو التالي:

١ - فصاحة ألفاظ القرآن الكريم ومفرداته:

قال - رحمه الله -: "فلا تمر بك كلمة من القرآن الكريم إلا وجدتَها محكمة الوضع، خفيفة الوقْع على السمع".

٢ - إحكام نظم القرآن الكريم ومتانته:

قال - رحمه الله -: "أما متانة نظم القرآن الكريم، فقد بلغت الغاية التي ليس وراءها

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣.

(٢) سورة هود الآية ١٣.

(٣) بلاغة القرآن للإمام الأكبر محمد الخضر حسين، صـ ٥٦.

(٤) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (٣/ ١٠٥٠).

مطلع، فلا يمكنك – وأنت العارف بقوانين البيان، الناظر في منشآت البلغاء بإمعان – أَنْ تشير إلى جملَةٍ من جُمَله، وتقول: لَيْتَها جاءت على غير هذا الوضع، أو تشير إلى كلمة من كلمها وتقول: لو استُبدل بها كلمة أخرى لكانت الجملة أشد انسجامًا وأصفى ديباجةً. يصل الكلمة بما يلائمها، ويعطفُ الجملة على ما يناسبها، ويضع الجملة معترضة بين الكلمتين المتلائمتين أو الجملتين المتناسبتين، فترى الكلمتين أو الجملتين مع الجملة المعترضة بينهما كالبناء المحكم المتلائم الأجزاء، فلا يكاد الفكر يشعر بأنه انقطع بالجملة المعترضة عن الجلمة الأولى أو الجملة، ثم عاد إلى كلمة أو جملة مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا".

٣ – انتظام ووفاء دلالة الحافظ القرآن الكريم على المعنى.

قال – رحمه الله –: "وأَمَّا انتظام دلالة القرآن على ما يقصد إفادته وإحضاره في الأذهان، فإنك ترى فيه التشابيه الرائعة، والأمثال البارعة، والاستعارات الطريفة، والمجازات اللطيفة، والكنايات المنقطعة النظير، والتعريض الذي يقضيه المقام فيكون أقرب إلى حسن البيان من القول الصريح.

وقد يخطر على بالك أنَّ في القرآن الكريم آياتٍ مشكِلة، أو متشابهة. والحق الذي لا مرية فيه أن لا إشكال في القرآن عند مَنْ يتدبره برويَّة، ويأتي إلى التفقه فيه، وقد تزوَّد بقوانين لغة العرب، واستضاء بمعرفة فنون بيانها.

وليس في القرآن متشابه على معنى أنَّ في الآيات ما لا يظهر تأويله للناس بحيث يتلونه أو يستمعون إليه ولا يعودون بفائدة علمية أو أدبية.

وأما استيفاء القرآن الكريم للمعاني التي يستدعي الحالُ الإفصاح عنها أو الإيماء إليها، فإنك تنظر في الآية، وتتدبر المعنى الذي سيقت من أجله، فتعود منها ويدك مملوءة من الفوائد التي تقع إليها، من حيث تُقَرِّر شريعة، أو تُقيم حجةً، أو تُلْقِي مَوْعِظَةً، أو ترسل حكمةً، إلى

نحو هذا مما تستبين به سبيل الرشد، وتنظم به شؤون الحياة، وترتفع به النفوس إلى أعلى درجات الفلاح في دنياها وآخرتها".

٤ - بلوغ القرآن الكريم الذِّروة في حسن البيان على الرغم من طول أمده وكثرة سوره وموضوعاته:

"بلغ القرآن الكريم الطرف الأعلى من حسن البيان على الرغم من أشياء اجتمعت له، ولو عرضت لكلام المخلوق لنزلت به عن المكانة العالية إلى ما هو أدنى.

ترى البليغ من البشر يحسنُ البيان ، ويأخذ لُبَّك بالمنشآت الرائقة، حتى إذا طال به مجال القول، وقطع فيه أشواطًا واسعةً، رأيتَ في جُمَله أو أبياته تفاوتًا في البراعة، وأمكنك أن تبصرَ فيها ضعفًا وتستخرج بنقدك الصحيح من أواخر كلامه مآخذ أكثر مما تستخرج من أوائلها، ولكن القرآن الكريم على طول أمده، وكثرة سُوَره، نزل متناسبًا في حُسْنِ بيانه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾[1]، ثم قال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾[2]، وترى البليغ من البشر يخوض في فنونٍ من الكلام متعددة، فإذا هو يرتفع في فنٍّ ، وينحطُّ في آخر. ولكن القرآن الكريم يتصرف في فنون كثيرة؛ مثل: الوعظ، وإقامة الحجج، وشرع الأحكام، والوصف، والوعد والوعيد، والقصص، والإنذار، وغير ذلك من الوجوه التي تتصل بالهداية العامة، فلا تتفاوت فيها ألفاظه الرشيقة، وأساليه البديعة".

٥ - صدق اللهجة فيما يعرضه من حقائق مع البعد عن الخيالات والمبالغات.

"والمعروف أن القرآن الكريم أتى بحقائق أسَّس بها شريعة واسعة النطاق، وليس من

(١) سورة الزمر من الآية ٢٣.

(٢) سورة النساء من الآية ٨٢.

شأن هذه المعاني أن تظهر فيها براعة البلغاء كما تظهر فيما أَلِفُوه من نحو: المديح، والرِّثاء، والتهنئة، والغزل، ووصف المشاهد، إلى غير ذلك مما يطلقون لأفكارهم فيه العنان، فتذهب مع الخيال كل مذهب، وترتكب من المبالغات ما استطاعت أن ترتكب، والقرآن يعبِّر عن تلك المعاني التي تستدعي صدقَ اللهجة، وصوغ الأقوال على أقدار تلك الحقائق، فترى الفصاحة ضاربة أطنابها، والبلاغة مرسِلةً أشعَّتها.

في بلغاء البشر مَنْ تُحِسُّ من شعره أو خطبته أو رسالته أنه لم يكن يتصَنَّعُ فيما يقوله، ذلك أنك تجد في كلامه: الجيد، والوسط، والرديء، وفيهم مَنْ تُحسُّ فيما يقوله التصنُّع، وهذا هو الذي يغلب على كلامه المنظوم أو المنثور. الجودة في تصوير المعنى، والتعبير عنه بكلام موزون أو غير موزون.

ولكن القرآن الكريم بالِغ الغاية من حُسنِ البيان، فلا يجد فيه الراسخ في نقد المنشآت البليغة ما ينزل عن الدرجة العليا، بل يُحسُّ روح البلاغة التي لا يحُوم عليها شيء من التصنُّع سارية في آياته وسوره، سواء في ذلك تصويره للمعاني، أو نظْم الألفاظ الناطقة بها".

٦ – إيراده القصة القرآنية في أكثر من موضع في أعلى درجات البلاغة والبيان.

"ومن مظاهر بلاغة القرآن الكريم أنه يوردُ القصّة في أوفى درجة من حسن البيان، ثم يعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقضيه مقام الوعظ، حتى إذا عقدت موازنة بين حكايتها هنا وحكايتها هناك، وجدتهما في مرتبة واحدة من البلاغة لا تنزل إحداهما عن الأخرى بحال، أما البليغ من البشر فقد يسوق إليك القصة في عبارات أنيقة، ثم يريد أن يعيدها مرة أخرى، فإذا هي في درجة من البراعة منحطَّة عن درجتها الأولى"[(١)].

(١) راجع: بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٨١١، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ٢/ ٤٤٥ – ٤٤٨.

ولذلك يقول الشيخ عبد الوهاب النجار عن تكرار القصة في القرآن الكريم: "وذلك مما يدل على إعجاز القرآن؛ فإنَّ أكتب الكاتبين وأبلغ البلغاء إذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظٍ غير الأولى مع المحافظة على المتانة في الأسلوب والبلاغة في التعبير كما في القرآن الكريم"(١).

٧ - براعة القرآن الكريم في جميع فنون الكلام.

قال الإمام محمد الخضر: "ومن إعجاز القرآن: أنه لا يتناول فنًّا من فنون الكلام إلا أتى باللفظ الرائع، والأسلوب الفائق، وقصارى الواحد من بلغاء البشر أن يبرَع في بعض فنون القول، وإذا وجَّه قريحتَهُ إلى فن آخر، أدركه الضعف، ولم يتجاوز فيه المنزلة المتوسطة أو السفلى. وإذا حقَّقت النظر في حال الخطباء والشعراء الذين يصبح كل واحد منهم علمًا في الفصاحة والبلاغة يُشار إليه بالبنان، لم تجد منزلتهم بعيدة من منازل البارعين من غيرهم بعدًا يبلغ بها حدَّ الإعجاز؛ كالبُعْدِ ما بين منزلة القرآن ومنازل غيره من منثور الخطباء ومنظوم الشعراء"(٢).

كما بيَّن الإمام محمد الخضر حسين هذا الوجه في مقال آخر؛ فقال بعد أن تحدث عن بلاغة القرآن: "ثم إِنَّكَ تَجدُ القرآن لا يتناول فنًا من فنون الكلام إلا أتى باللفظ الرائع، والأسلوب البديع، وقصارى الواحد من بلغاء البشر أن يبرع في بعض فنون القول، ويضيقُ باعه في فنونه الأخرى، فلا يدرك فيها سوى المنزلة المتوسطة أو السفلى. وإذا نظرت إلى الأفراد الذين يفوقون أقرانهم فصاحة وبلاغةً، ويصبح كل واحد منهم علمًا في عصره يُشار

(١) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار، صـ ١٣، ط. مكتبة دار التراث.

(٢) محمد رسول الله وخاتم النبيين، للإمام محمد الخضر حسين، صـــ ١٢، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ٣/ ١٠٠٩ وما بعدها.

إليه بالبنان، لم تجد منزلتهم بعيدةً من منازل البارعين من غيرهم بعد أن يجعلها خارقة للعادة، كالبعد ما بين منزلة القرآن ومنازل غيره من منظوم الشعراء ومنثور الخطباء. وإذا بدا لنا أن في الإسلاميين أو المُحدَثينِ مَنْ يَفُوقُ بلغاء العرب يوم البعثة، فالفضل في هذا عائد إلى القرآن؛ إذ كانوا يهتدون بنور بيانه، ويجتهدون في أن ينسجوا على منواله، وهم على ما سنَّه القرآن من طرف الإبداع وأدناه من قطوف البيان، لم يستطيعوا أن يأتوا بما يدانيه، فضلًا عما يقف بجانبه، وقد كان رسول الله ﷺ أفصح العرب منطقًا، ونجد الفرق بين حديثه والقرآن جليًا واضحًا، ومن عقدَ بينهما مقايسةً، رأى حق اليقين أو أولئك الذين يقولون: إن القرآن من تأليف محمد، قومٌ لم يذوقوا للبلاغة طعمًا، أو لم يهتدوا للإنصاف سبيلًا"[١].

المحور الثالث: نماذج من بلاغة القرآن الكريم:

ذكر الإمام محمد الخضر حسين - يرحمه الله - نماذجَ من بلاغة القرآن الكريم، ومنها:

(أ) وضْع الاسم الظاهر موضع الضمير:

قال الإمام محمد الخضر حسين: "زرتُ الشيخ محمد بن يحيى الشنقيطي في الحجرة التي نزل بها من زاوية الشيخ إبراهيم الرياحي في تونس سنة ١٣١٥ هـ، فوجدته يتلو من حفظه الأبيات التي وجهها السائل للشيخ السبكي، ويقول فيها[٢]:

---

(١) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ٣/ ١٠٥١.

(٢) السائل هو: صلاح الدين الصفدي. والمسئول: الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي.

جاء في فتاوى السبكي: "كتب الشيخ العلامة صلاح الدين الصفدي إلى الشيخ الإمام:

أَسَـيِّدَنَـا قَـاضِـي الْـقُضَـاةِ وَمَـنْ إِذَا ... بَـدَا وَجْـهُـهُ اسْـتَـحْـيَـا لَـهُ الْـقَـمَـرَانِ

وَمَـنْ كَـفُّـهُ يَـوْمَ الـنَّـدَى وَيَـرَاعُـهُ ... عَـلَـى طِـرْسِـهِ بَـحْـرَانِ يَـلْـتَـقِـيَـانِ

وَمَنْ إِنْ دَجَتْ فِي الْمُشْكِلَاتِ مَسَائِلُ ... جَـلَاهَـا بِـفِـكْـرٍ دَائِـمِ الـلَّـمَـعَـانِ

=

أَسَـــيِّدَنَـا قَـاضِـــي الْـقُضَـــاةِ وَمَـنْ إِذَا بَـدَا وَجْـهُـهُ اسْـــتَـحْـيَـا لَـهُ الْـقَـمَـرَانِ
رَأَيْـتُ كِـتَـابَ اللهِ أَكْـبَـرَ مُـعْـجِـزٍ لِأَفْضَـــلَ مَـنْ يُـهْـدَى بِـهِ الـثَّـقَـلَانِ
وَلَـكِـنَّـنِي أَبْصَـــرْتُ فِي الْـكَـهْـفِ آيَـةً[1] بِـهَـا الْـفِـكْـرُ عـنْ طُـولِ الـزَّمَـانِ عَـيَـانِـي
وَمَـا هِيَ إِلَّا {اسْـتَـطْـعَـمَـا أَهْـلَـهَـا} فَـقَـدْ أَرَى اسْـــتَـطْـعَـمَـاهُـمْ مِـثْـلَـهُ بِـبَـيَـانِ
فَـمَـا السِّـــرُّ لـلـقُـرَّاءِ فِـي وضـــعِ ظـاهـرٍ مـكـانَ ضـــمـيـرٍ؟ إِنَّ ذاك لِشَـــانِ

وذكر في الجواب: أن (أهلها) جمع مضاف يفيد العموم، فيدل على أنه استطعم جميع أهل القرية، بخلاف ما لو أتى به ضميرًا، فإنه يحتمل أن يكون الاستطعام لمن أتاهم، وهم سُكان أول القرية[2].

رَأَيْـت كِـتَـابَ اللهِ أَكْـبَـرَ مُـعْـجِـزٍ لِأَفْضَـــلَ مَـنْ يَـهْـدِي بِـهِ الـثَّـقَـلَانِ
وَمِـنْ جُـمْـلَـةِ الْإِعْـجَـازِ كَـوْنُ اخْـتِصَـــارِهِ بِـإِيـجَـازِ أَلْـفَـاظٍ وَبَسْـــطِ مَـعَـانِ
وَلَـكِـنَّـنِـي فِـي الْـكَـهْـفِ أَبْصَـــرْت آيَـةً بِـهَـا الْـفِـكْـرُ فِـي طُـولِ الـزَّمَـانِ عَـنَـانِـي
وَمَـا هِـيَ إِلَّا {اسْـتَـطْـعَـمَـا أَهْـلَـهَـا} فَـقَـدْ يُـرَى اسْـــتَـطْـعَـمَـاهُـمْ مِـثْـلَـهُ بِـبَـيَـانِ
فَـأَرْشِـــدْ عَـلَـى عَـادَاتِ فَضْـــلِـك حَـيْـرَتِـي فَـمَـالِـي بِـهَـا عِـنْـدَ الْـبَـيَـانِ يَـدَانِ

وخلاصة جوابه: "والغالبُ أنَّ من أتى قريةً ليجد جملة أهلها دَفعةً، بل قد يقع بصره على بعضهم، ثم قد يستقرؤهم. فلعل هذين العبدين الصالحيْن لمَّا أتياها قدَّر الله لهما كما يظهر من حسن صُنعه استقراء جميع أهلها على التدريج؛ ليبين به كمال رحمته وعدم مؤاخذته بسوء صنيع بعض عباده. ولو عاد الضمير فقال: "استطعماهم" تعيَّن أن يكون المراد الأهل الأولين لا غير، فأتى بالظاهر إشعارًا بتأكيد العموم فيه، وأنهما لم يتركا أحدًا من أهلها حتى استطعماه وأبى، ومع ذلك قابلاهم بأحسن الجزاء. فتاوى السبكي، تأليف الإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن بد الكافي السبكي، ١/ ٦٥، ط. دار المعرفة – بيروت.

(١) يقصد قوله تعالى من سورة الكهف: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾.

(٢) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٦.

(ب) الإيجاز[١]:

قال الإمام محمد الخضر: "وقد جاء في القرآن الكريم ما نطق بمعناه العرب، فقالوا: "القتلُ أَنفى للقتل"، وقال القرآن: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢]، وقال العرب:

كلُّ ابنِ أُنْثى وإن طالَتْ سَلامتُهُ يَوْمًا على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ[٣]

ويقول القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٤]؛ فما نطق به القرآن الكريم أوجز وأبلغ[٥].

(جـ) التذييل[٦] في ختام الآيات القرآنية بأسماء الله الحسنى ومناسبته لها:

قال الإمام محمد الخضر: "ومن بلاغة القرآن: قوله تعالى عن عيسى - عليه السلام -: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[٧]، فالمراد: وإن تغفر لهم فإنك

---

(١) الإيجاز في اللغة: القلة والاختصار والسرعة، وفي اصطلاح علماء البلاغة من المتأخرين: "أداء المعنى المراد بلفظ ناقص عنه وافٍ به. يراجع: روائع المعاني، د/ عبد الحميد العبيسي، صـ ١٩٥، ط. مطبعة حسان.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

(٣) البيت من قصيدة البردة لكعب ابن زهير التي يمدح فيها النبي ﷺ ومطلعها:

بانَتْ سُعادُ فقَلبي اليَوْمَ مَتْبولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُجْزَ مَكْبولُ

(٤) سورة آل عمران، من آية ١٨٥.

(٥) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٧.

(٦) التذييل: هو تعقيب جملةٍ بجملةٍ مشتملة على معناها للتوكيد. نحو: قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾. راجع: التعريفات للجرجاني، صـ ٨٢، ط. عالم الكتب.

(٧) سورة المائدة، الآية ١١٨.

أنت القوي الغالب الذي لا يَفْعَلُ إلا ما تقتضيه الحكمة، ولا يصح الوقف إلا على قوله (الحكيم)، وليس مراده الاستشفاع لم حتى يقول: "فإنك أنت الغفور الرحيم" كما توهَّمه بعضهم، وجعل الوقف على قوله:﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾، وجعل قوله:﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ مستأنفًا[1].

المحور الرابع: مسائل تتعلق بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم:

ذكر الإمام محمد الخضير حسين عدة مسائل تتعلق بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وقد جمعتُها من تراثه، وهي:

المسألة الأولى: هل حكاية[2] القرآن لأقوال الناس تكون معجزة كالقرآن؟

قال الإمام محمد الخضر: "وحكاية القرآن لأقوال الناس؛ كما في قول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ ﴾[3]،

إنما هي حكاية لمعنى ما قالوه، لا لفظه، فلا يكون ما صدر منهم معجزاً كإعجاز القرآن.

ثم قال الإمام الخضر حسين: وأذكر بهذه المناسبة أنه أُقيمت مأدبة للشيخ محمد عبده

---

(١) بلاغة القرآن للإمام محمد الخضر حسين، صـ٥٨.

(٢) عقد الإمام الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) مسألة بعنوان (في النهي عن ذكر لفظ الحكاية عن الله تعالى فقال: "وكثيرًا ما يقع في كتب التفسير "حكى الله" وينبغي تجنُّبه. قال الإمام أبو نصر القشيري في كتابه (المرشد): قال معظم أئمتنا: لا يقال: كلام الله يُحكى، ولا يقال: حكى الله؛ لأن الحكاية الإتيان بمثل الشيء، وليس لكلامه تعالى مِثْل". البرهان في علوم القرآن، ٢ / ١٧٧، ط. دار التراث.

(٣) سورة الإسراء، الآيات ٩٠ - ٩٣.

عندما زار تونس، وكان من الحاضرين الشيخ سالم بوحاجب، نحكى حكاية اقتضى الحال أن يعيدها الشيخ محمد عبده للحاضرين، فقال له الشيخ: قد أعدتَها بأحسن مما قلته أنا. والشيخ محمد عبده لم يزدْ في الحكاية معنىً لم يقله الشيخ، وإنما حكاها بألفاظ أفصح من عبارة الشيخ بوحاجب، وأبلغ(١).

المسألة الثانية: شبهة حول الإعجاز البلاغي للقرآن والجواب عنها:

قال الإمام محمد الخضر حسين: "تذاكرت مع الشيخ عارف المنير أحد علماء الشام في علوم القرآن، فأخبرني بأن بعضهم قال له: ما وجه معجزة القرآن؟ فأجاب الشيخ عارف بقوله: بلاغته؟ فقال له المعترض: بلوغ الكلام الدرجة العليا من بلاغة اللغة لا يدل على أنه معجزة، كما أن هوميروس ألَّف في تاريخ اليونان قصيدة قالوا: هي أبلغ ما قيل في لغة اليونان، ولم يستطع أحد أن يقول مثلها في البلاغة، ولم يكن بذلك رسولاً. فقلت للشيخ عارف: الفرق بين بلاغة هوميروس وبلاغة من يليه فرق قريب، أما الفرق بين بلاغة القرآن وأبلغ متكلم باللغة العربية ففرقٌ بعيد، فيصح أن يكون معجزة للرسول، وإن أحاديث الرسول بليغة في ذاتها، ولكن هناك فرق بينها وبين القرآن، وقد تحدى الرسول العرب بالقرآن فعجزوا عن الإتيان بمثله(٢).

(١) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٧.

(٢) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـــ ٥٧، ٥٨، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ٢/ ٥٠٨.

المسألة الثالثة: هل يدرك جميع الناس الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؟

قال الإمام محمد الخضر حسين: "وهذا الوجه من وجوه الإعجاز لا يدركه إلا من عرف بلاغة اللغة العربية"(١).

المسألة الرابعة: السبيل للوقوف على الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

ومن أجل الوقوف على بلاغة القرآن الكريم، قال الإمام محمد الخضر حسين: "وعلماء جامع الزيتونة لا يقرأون تفسير القرآن إلا إذا قرأوا علوم المعقول والمنقول، حتى يدركوا بلاغة القرآن. وأذكر أنه طلب مني بعض الطلبة أن أقرأ لهم البيضاوي في جامع "حمودة باشا" فأجبتُ رغبتهم وقرأتُ منه دروسًا، فأرسل إلى القاضي المالكي يدعوني إلى المحكمة، فذهبت إليه، فقال لي: بلغني أنك تدرِّس التفسير، فقلت: نعم، فقال لي: على مَنْ قَرأته؟ فقلتُ: على شيخنا عمر بن الشيخ وشيخنا محمد النجار، فقال لي: هؤلاء ما قرأوا التفسير إلا بعد أن صاروا شيوخًا كباراً. فبلغ الأمر إلى الوزير الكبير الشيخ محمد العزيز بوعتور، فقال: يترك المسجد الذي تكلم معه عنه القاضي المالكي، عملاً بقاعدة "عدم النزاع مع الكبراء"، ويدرس في مسجد آخر، فقرأت التفسير في مسجد أبى القاسم الجليزي"(٢).

(١) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٨.

(٢) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٩.

المطلب الرابع: اشتمال القرآن الكريم على الحِكَم الرائعة والمعاني العظيمة التي لا اختلاف بينها ولا تعارض.

وعن هذا الوجه من إعجاز القرآن قال الإمام محمد الخضر حسين: "ومن إعجاز القرآن الكريم: اشتماله على حكم ومعانٍ صحيحة، وعدم وجود اختلاف بينها مع كثرتها، وهذا الوجه من الإعجاز يدركه حتَّى مَنْ لا يعرفُ بلاغة اللغة العربية. وقد دخلت إلى مسجد (بايزيد) بالآستانة في رمضان، فوجدتُ عالمًا تركيًا يدرس (شرح السعد على التلخيص) في بلاغة اللغة العربية، فكان يقرأ النص العربي، ويشرح لهم المعنى باللغة التركية، فيفهمون المعنى وحكمته. وقد سألني بعض من له دراية بعلوم الفلسفة، فقال: إن الحكماء يقولون: إن الصداقة لا تدوم إلا بين الفضلاء، فهل يوجد هذا المعنى في القرآن؟ فقلت له: يقول الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]. فهذا يدل على أنَّ الفضلاء يستمرون على صداقتهم، ولو مع الأحوال العظيمة"[2].

كما بيَّن – رحمه الله تعالى – ذلك بالتفصيل؛ فقال يرحمه الله: "ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم: غزارة حكمه ونبوغها؛ بحيث جاءت آخذةً بأسباب السعادة، آتية على الخصال التي تسمو بها الأفراد والجماعات إلى سماء السيادة، ومن أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[3].

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٦٧.

(٢) بلاغة القرآن، للإمام محمد الخضر حسين، صـ ٥٨، موسوعة الأعمال الكاملة، للإمام محمد الخضر حسين، ٢/ ٥٠٩.

(٣) سورة فصلت، الآية ٣٤.

فمن الطبائع الغالبة على البشر: التسرُّع إلى إذاية العدو بما أمكن. ومن مقاصد القرآن: تقويم الطباع التي تنزع إلى الأذى، وتبعث على التقاطع؛ فجاءت هذه الآية تأمر الإنسان بأن يسلك في دفع خصمه الطريقة التي هي أجم؛ رجاء أن يكون لهذه المجاملة أثر صالح، وهو قلب العداوة أُلفة وصداقة.

ومن أمثلة هذا الوجه: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾[1].

أمر بالتثبت فيما ينقله الفاسق، حذراً من أن يكون حديثًا مفترى، فيكون العمل عليه على الجهالة، وعاقبة عمل الجاهل ندامة وخسران، وكم من بلاءٍ يلحق الأشخاص أو الجماعات من اندفاعهم إلى العمل على خبر الفاسق قبل أن يتبينوا!

وانظروا إن شئتم إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾[2]. فهذه الآية نصيحة للأُمة بأن لا ينخدعوا لَقَولٍ ليِّن ووعد مؤكَّد يبذله لهم العدو، فيركنوا إليه بقلوبهم، ولا يأخذوا منه حذرهم، فإذا هُو يبسُطُ عليهم طاغيًا، ويريهم أنه ألان لهم القول خادعًا، وقطع لهم العهد غادراً، وإن هذه النصيحة لمن أبلغ النصائح التي تقوم عليها حياة الأمة وعظمتها، ولو حفظها المسلمون في سويداء قلوبهم، وجعلوها بمرأى من أبصارهم، لاستقاموا على عزتهم، ولم يفقدوا شيئًا من حريتهم.

ويدخل من قبيل حكم القرآن ونصائحه عنايته بمكارم الأخلاق، فهو مملوء بالحث على نحو الصدق، والحلم، والصبر، والسخاء، والشجاعة، والعدل، والوفاء، تلك الأخلاق التي

(١) سورة الحجرات، آية ٦.

(٢) سورة التوبة من آية ٨.

تقوم عليها قواعد العمران، وتتأكد بها روابط التوادد والاتحاد، وبها تحرز الأمة قوة معنوية وأخرى مادية، فلا يجد أعداؤها الطريق إلى أن يطؤوا موطئًا يغيظها.

عني القرآن بأصول الفضائل التي هي مطلع السعادة، ومن أجَلِّ هذه الفضائل: ما يسمونه: الشجاعة الأدبية، وهي خلق الصراحة والإقدام على قول الحق، فقد جاء القرآن بها على أكمل وجه، وفرضها على الناس في أبلغ خطاب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١).

فهذه الآية تأمر الرجل أن يؤثر الحق على الهوى، ولا يبالي عند إقامة الحق ما ينازعه من عاطفة القربى، وإن بلغت أشُدَّها، وكانت عاطفته نحو والديْه اللذين ربياه صغيراً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾(٢).

فهذه الآية تذكر الذين يكتمون ما يعرفون من الحق، وتجعل جزاءهم اللعنةَ من الله، ومَنْ يَتَأَتَّى منه اللعنُ من الملائكة والمؤمنين، ومن الذي يجهل المفاسد التي تجري على يد عالم يشترى رضا المخلوق برضا الله، ويتبدل متاع هذه الحياة بما هو خير وأبقى؟!

وكم نتلو في القرآن من أنباء دعاة الإصلاح ما شأنه أن يطبع النفوس على خصلة الجهر بالحق والدعوة إلى الإصلاح، وإن وجدوا الناس على أهواء غالبة، ولقوا في سبيل الدعوة أذى كثيراً. ومن أوضح الآيات في هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا

(١) سورة النساء من آية ١٣٥.

(٢) سورة البقرة آية ١٥٩.

يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾[1].

فالأمة التي تملك الشجاعة الحربية لا تصل إليها يدُ العدو بأذى، فإذا ضمت إلى ذلك الشجاعة الأدبية، استقامت شؤونها الداخلية، وأمِنت من أن يفسد عليها رؤساؤها أمر سياستها أَوْ يَضِلُّوا السبيل، فيهيئوا لأبنائها مستقبلاً منكراً شقيًا[2].

المطلب الخامس: ورود معاني القرآن الكريم كلها على الوجوه المعقولة، وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة.

قال الإمام محمد الخضر حسين: "ومن وجوه دلالة القرآن على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ورود معانيه كلها على الوجوه المعقولة، وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة، وإنما كان محمد ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجتمع بذي علمٍ أو فلسفة، فلولم يكن القرآن من الله حقًا، لوُجد في كثير من آياته ما تنكره العقول السليمة، ووُجد في كثير من آياته ما يخالف الآراء المسَلَّمة أو الراجحة، شأن ما يتكلم به غيره من البشر إن لم يكن أميًا، بل ظهر في كثير من آياته معاني لم تنكشف لأهل العلم إلا منذ عهد قريب، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[3]، فقد كشفا العلم الحديث أن في كل نبات ذكراً وأنثى.

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ...﴾[4]، فقد ثبت في علم النبات أن الرياح تنقل اللقاح إلى عضو التأنيث من النبات.

---

(١) سورة يونس آية ٧١.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، ٣/ ١٠٥٤ - ١٠٥٦.

(٣) سورة يس آية ٣٦.

(٤) سورة الحجر من آية ٢٢.

واعتبر في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾[١]؛ فالآية مسوقة للرد على مَنْ أنكر جمع العظام بعد بلاها وتفرقها، على معنى إنكار إعادة الشخص بعينه. ووجه تخصيص البنان بالذكر مطابقٌ لما أثبته العلم من أنَّ لِبَنان كل إنسان هيئةً خاصةً لا تماثلها هيئة بنان إنسان آخر من كل وجه[٢].

هذا وقد رد الإمام الخضر حسين على من يرى أنه لا يضر القرآن أن يوجد فيه ما يكون مخالفًا لقضايا بعض العلوم القطعية؛ فقال يرحمه الله: "كنت يومًا في مجلس حافل، فقال أحد حاضريه: إن القرآن نزل للوعظ والإرشاد ولا يضره أن يوجد فيه ما يكون مخالفًا لقضايا بعض العلوم القطعية. فقلتُ: نحن نعلم أن القرآن الكريم لم ينزل لبيان الحقائق العلمية التي يُبحث عنها في مثل العلوم الطبيعية والرياضية، ولكنه إذا عرَّج في طريق هدايته على شيء مما يبحث عنه أرباب هاتيك العلوم، عرفنا حق اليقين أنه لا يقول إلا حقًا، ولا أرى هذا الرأي الذي أبديتَه إلا أَنَّك فَرَضْتَهُ فَرْضًا، إِذْ لا تستطيع أن تأتينا بمثال يرينا كيف قرر القرآن شيئًا يخالف ما ثبت في العلوم اليقينية. وهنا انقطعت المحاورة بيني وبينه من ناحية المباحثة العلمية[٣].

(١) سورة القيامة، آية ٣، ٤.

(٢) محمد رسول الله وخاتم النبيين للخضر حسين، صـ ١٥، ١٦، موسوعة الأعمال الكاملة ٣/ ١٠١١.

(٣) مقال بعنوان: رأي في تفسير القرآن، للشيخ/ محمد الخضر حسين، صـــ ٨. مجلة لواء الإسلام. العدد الخامس، محرم ١٣٦٧ هـ/ ١٤ نوفمبر ١٩٤٧ م.

المطلب السادس: قوة أدلة القرآن الكريم وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح.

وعن هذا الوجه قال الإمام الخضر حسين: "ومن نظر إلى أن محمداً - ﷺ - نشأ في أمية، ثم أمعن النظر في قوة أدلة القرآن، وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح، لم يَرْتَبْ في أنه تنزيل من حكيم حميد.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، فإنك ترى في الآية حجة قائمة على أنَّ الله واحد، وأن الإلهية تقتضي الاستقلال بالتصرف في الكون تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً.

فجميع حجج القرآن الكريم واردة على قانون المنطق السليم. قال بعض فلاسفة الإسلام: "لَقَد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تُشفي غليلاً، ولا تبريء عليلاً، ورأينا أقرب الطرق طريقة القرآن[2].

وفصَّل الإمام محمد الخضر حسين هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ فقال: "ومن وجوه إعجاز القرآن: قوة أدلته؛ فَقَد عرفنا أن محمداً - صلوات الله عليه - قد نبت في وادي جاهلية، ونشأ في أميةٍ، ونجد مع هذا حجج القرآن العقلية القائمة نافذة؛ كقوله في الاستدلال على وجود الخالق: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾[3]، فإن المعنى: أوُجدوا من غير مُوجد أن هم الذين أوجدوا أنفسهم؟!. وكلا القضيتين غير صحيح، فوجب أن يكونوا صنعَ قادر حكيم.

---

(١) سورة الأنبياء من آية ٢٢.

(٢) محمد رسول الله وخاتم النبيين، للخضر حسين، صـ١٦، ١٧، موسوعة الأعمال الكاملة ٣/ ١٠١١، ١٠١٢.

(٣) سورة الطور آية ٣٥.

وكقوله في الاستدلال على وحدته: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١)، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾(٢)، ففي الآيتين بُرْهانٌ قائم على وجوب وحدة الإله، وأنَّ الألوهية تقضي الاستقلال بالتصرف في السماوات والأرض تغييرًا وتبديلاً، إيجاداً وإعداماً.

وكقوله يدفع شبهة منكري البعث، ويريهم أنه من قبيل ما يدخل تحت سلطان قدرته: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾(٣)، وهكذا نجده يأتي على شبههم بما يزيحها، وينادي على غلطهم في إيرادها؛ كقوله تعالى في الرد على من ألحفوا في أن يكون الرسول مَلكًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾(٤)، يريد أنهم لا يستطيعون الأخذ من المَلَك وهو في صورته الملكية، ولو بعثه إليهم في صورة بشرٍ لعادوا إلى هذا اللبس الذي يلبسون، وما كانوا مؤمنين.

فجميع صحيح القرآن واردة على قانون المنطق الصحيح ومن لم ينتفع بها ويستقم على طريقتها، فلأنه استكبر عليها، أولم يوقع النظر على وجه دلالتها. قال الرازي: "وقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرقِ طريقة القرآن"(٥).

وقيل: "وأحسن الأدلة العقلية: الأدلة التي بيَّنها القرآن، وأرشد إليها الرسول ﷺ، فينبغي

---

(١) سورة الأنبياء من آية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون من آية ٩١.

(٣) سورة يس آية ٧٨، ٧٩.

(٤) سورة الأنعام آية ٩.

(٥) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ١٦/ ٥٤، ط. المكتبة التوفيقية.

أن يُعرف أَن أَجَلَّ الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ﷺ"[1].

وأخيراً يبين الإمام محمد الخضر حسين أن هناك ألوانًا من الإعجاز توجد في جميع سور وآيات القرآن الكريم، وأن هناك ألوانًا أخرى لا توجد إلا في بعض السور والآيات؛ فقال: "من إعجاز القرآن: ما يوجد في كل سورة، أو ما يكون بمقدار سورة، وهو بيانه البديع، وأسلوبه الرائع، ونظمه الحكيم"[2].

كما قال عن بعض وجوه إعجاز القرآن وهي حسن النظم، وبراعة الأسلوب، وحكمة المعنى: "وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كل سورة. وفي القرآن وجوهٌ أخرى من الإعجاز؛ كالإخبار عن غيوب ماضية أو غيوب مستقبلية، وكاشتماله على معانٍ علمية دقيقة لا عهد للأميين بها"[3].

(١) موسوعة الأعمال الكاملة، للإمام محمد الخضر حسين، ٣/ ١٠٥٣ وما بعدها.

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة، للإمام محمد الخضر حسين، ٣/ ١١٥٣.

(٣) المرجع السابق، ١/ ٤٦.

الخاتمة

أهم نتائج البحث:

١ - إنصاف الأزهر الشريف، وتخليه عن العصبية القومية؛ فقد أتيح للأكفاء من غير المصريين تولي مشيخة الأزهر الشريف، وعلى رأسهم الشيخ الإمام / يحيى بن عبد الله بن محمد الشاوي الجزائري (ت ١٠٩٦ هـ) صاحب كتاب (المحاكمات بين أبي حيان الأندلسي وابن عطية والزمخشري)، والشيخ الإمام محمد الخضر حسين التونسي.

٢ - أن هناك إعجازًا يتحقق في كل سورةٍ من سور القرآن الكريم، وفي كل آيةٍ من آياته، ويتمثل في: حسْن النظْم، وبراعة الأسلوب، وحكمة المعنى. وفي القرآن وجوهٌ أخرى من الإعجاز تنفرد بها بعض السور أو الآيات؛ كالإخبار عن غيوبٍ ماضية أو غيوبٍ مستقبلية، وكاشتماله على معانٍ علمية دقيقة لا عهدَ للعرب آنذاك بها.

٣ - رفض الإمام محمد الخضر حسين للإعجاز العددي في القرآن الكريم القائم على حساب الجمَّل، كما تقدَّم بيانه.

٤ - اهتمام الشيخ الإمام محمد الخضر حسين بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم على غيره من ألوان الإعجاز حيث أفاض في الحديث عنه، وذكر له سبعة وجوهٍ من مظاهره، بينما جاء حديثه عن الألوان الأخرى من الإعجاز موجزًا مقتضبًا. وهذا يرمي إلى أن أس الإعجاز في القرآن هو الإعجاز البلاغي، وبقية وجوه الإعجاز تبعٌ له، وتولد من رحِمِه.

٥ - ضرورة معرفة معايير بلاغة القول عمومًا قبل الحديث عن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وتتمثل في ثلاثة أشياء: فصاحة الألفاظ، إحكام النظم، الوفاء في الدلالة على المعنى.

٦ - أن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم لا يدركه إلا مَنْ عرف بلاغة اللغة العربية، بخلاف بقية وجوه الإعجاز الأخرى فربما يدركها كثيرٌ من الناس حتى مَنْ لا يعرف بلاغة اللغة العربية، كاشتمال القرآن الكريم على الحِكَم الرائعة، والمعاني العظيمة التي لا اختلاف بينها ولا تعارض.

٧ - أن السبيل إلى معرفة الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم هو قراءة المعقول والمنقول قبل الإقبال على قراءة التفسير.

٨ - أن ذكر القرآن لأقوال الناس إنما هي ذكر للمعنى ما قالوه، لا للفظه؛ فلا يكون ما صدر عنهم معجزًا كإعجاز القرآن الكريم.

٩ - أن تكرار القصة في القرآن الكريم من أبرز ألوان الإعجاز البلاغي أو البياني للقرآن.

١٠ - إشارة الإمام محمد الخضر إلى الإعجاز العلمي للقرآن الكريم كوجهٍ معتبر من وجوه إعجاز القرآن، مع تقريره أن القرآن لم ينزل في الأصل لبيان الحقائق العلمية التي يُبحث عنها في مثل العلوم الطبيعية والرياضية، ولكن يأتي ذكر هذه الحقائق العلمية في غضون الحديث عن الهداية ووسائلها وسبلها والتي هي الهدف الأسمى من نزول القرآن الكريم.

١١ - ربط الشيخ الإمام بين إعجاز القرآن الكريم وأمية العرب في مواطن كثيرة عند بيانه بعض وجوه إعجاز القرآن، كالإعجاز العلمي، وقوة أدلة القرآن وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح.

١٢ - الفرق بين بلاغة القرآن الكريم، وحديث النبي ﷺ جليٌّ واضح - مع كونه ﷺ أفصح العرب منطقًا، ومَن عقد بينهما مقايسةً، رأى حق اليقين أن أولئك الذين يقولون إن القرآن من تأليف محمد ﷺ لم يذوقوا للبلاغة طعمًا أو لم يهتدوا للإنصاف سبيلًا.

أهم التوصيات:

أوصي بدراسة وافية مستوعبة لقضايا علوم القرآن لدى شيخ الأزهر الشريف، بحيث يُدرس كل فرعٍ من فروع القرآن على حدة في فكر هؤلاء الأعلام.

فهرس المصادر والمراجع

- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم: د. محمد عمارة، ط. دار الشروق.
- البرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي، ط. دار التراث.
- بلاغة القرآن الكريم للإمام محمد الخضر حسين، أشرف على طبعه ونشره علي الرضا التونسي، ط. ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.
- التعريفات للجرجاني، صـ ٨٢، ط. عالم الكتب.
- روائع المعاني، د/ عبد الحميد العبيسي، ط. مطبعة حسان.
- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ط. المكتبة التوفيقية.
- شرح النووي على مسلم، الإمام النووي، ط. دار الحديث بالقاهرة.
- فتاوى السبكي، تأليف الإمام أبي الحسن تقي الدين علي بن بد الكافي السبكي، ط. دار المعرفة – بيروت.
- الفتح المبين في طبقات الأصوليين للشيخ عبد الله مصطفى المراغي، الناشر: محمد أمين دمج – بيروت، مشيخة الأزهر للأستاذ: علي عبد العظيم، ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.
- قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار، ط. مكتبة دار التراث.
- كتابات حول الإمام محمد الخضر حسين، إعداد: علي الرضا الحسيني، ط الدار الحسينية للكتاب، أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث للعلامة أحمد تيمور. ط. دار الآفاق العربية.
- مجلة لواء الإسلام. العدد الخامس، محرم ١٣٦٧ هـ/ ١٤ نوفمبر ١٩٤٧ م، مقال بعنوان: رأي في تفسير القرآن، للشيخ/ محمد الخضر حسين.

- محمد رسول الله وخاتم النبيين، بقلم: صاحب الفضيلة الأستاذ السيد/ محمد الخضر حسين، طبعة المعاهد الدينية.
- مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، ط. دار الفكر.
- المصباح المنير. دار الكتب العلمية.
- المعجم الوسيط، أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط. مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية.
- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي على الرضا الحسيني، ط دار النوادر الكويتية.

فهرس الموضوعات

المحتويات

المقدمـــة ٢٦٣
المبحث الأول: التعريف بالإمام محمد الخضر حسين ٢٦٥
المبحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن في فكر الإمام محمد الخضر حسين ٢٦٩
المطلب الأول: أنباؤه عن الأمم السابقة بما لا يخالفها في التاريخ. ٢٧١
المطلب الثاني: تحقق أخبار القرآن الكريم المستقبلية على نحو ما أخبر به. ٢٧٢
المطلب الثالث: الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ٢٧٤
المحور الأول: بيان معايير بلاغة القول: ٢٧٤
المحور الثاني: مظاهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ٢٧٦
المحور الثالث: نماذج من بلاغة القرآن الكريم: ٢٨١
المحور الرابع: مسائل تتعلق بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: ٢٨٤
المطلب الرابع: اشتمال القرآن الكريم على الحِكَم الرائعة والمعاني العظيمة التي لا اختلاف بينها ولا تعارض. ٢٨٧
المطلب الخامس: ورود معاني القرآن الكريم كلها على الوجوه المعقولة، وعدم مخالفتها للعلوم الصحيحة. ٢٩٠
المطلب السادس: قوة أدلة القرآن الكريم وقيام حججه على قانون المنطق الصحيح. ٢٩٢
الخاتمـة ٢٩٥
فهرس الموضوعات ٢٩٩